

## التدبير في آيات الكون



قال تعالى: (وَكَذَلِكَ نُزَيِّرُ لِرَبِّرَاهِيمَ مَلَائِكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونِ مِنَ الْمُوقِنِينَ) (الأنعام / 75).

وقد كان الرسول (ص) قبل أن يأتيه الوحي قد حبب إليه العزلة فكان يذهب بعيداً عن صخب الحياة وموضائها إلى غار حراء يتحنّث ويتعبّد ويفكر متأملاً في نفسه وفي هذا الكون الفسيح حوله، ويبقى فيه الليالي ذوات العدد وكان يتزود لذلك، فأخرجت منه هذه الليالي روحه المصقولة ونفسه الكبيرة التي تنشد السلام والطمأنينة وتلتمس بالتفكير والتأمل معرفة الحق والحكمة والفضيلة في عالم مملوء بالباطل والأكاذيب، فعبادة الأصنام ليست حقاً واللهو والجهالات ليست حقاً، والخصومات والتفاخر بين الناس ليس سلاماً وفضيلة، فأين الحق؟ وأين السلام؟ وأين الطمأنينة والفضيلة؟ لم يجدها هذا القلب الكريم إلا بعد أن لاذ بغار حراء متأملاً متفكراً متديراً في الكون حوله ملتمساً الهداية والمعرفة التي لا تكون إلا بتوفيق من الله الذي يختار صفوته ويقبل عليهم فيقبلون عليه وإذا رزق الله بعده المعرفة والإيمان بعد هذه الدرجة من التأمل والتدبير سكن قلبه واطمأن إلى دعوة الحق له واستجابته لدعوته وخرج من سكرة الحيرة والغفلة إلى بيان الصحو واليقظة، وهنا تصفو نفسه وتشرق لاستقبال عالم الشهود والحقيقة. وهكذا شاءت إرادة الله أن يهدي هذا العقل الحائر ويفك وثاق هذا القلب القلق ما شرق على نبيه المختار من نور المعرفة وأفاض عليه من قيس الإيمان.

قد تجلى لقلبه منه نور \*\*\* فاستضاءت به من الظلمات

وهنا دقت الساعة بالحدث الجلل، وفتحت صفحة جديدة من صفحات الإنسانية المجيدة (فَأَوْحَىٰ إِلَيَّ عَبْدِي مَا أَوْحَىٰ \* مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ \* أَفَتَذْمُرُونَهُ عَلَيَّ مَا يَرَىٰ) (النجم / 10-12).

وهكذا إبراهيم (ع) ينظر إلى السماء في نجومها وشمسها وقمرها باحثاً عن □ حتى يصل بعد تفكير وتدبر إلى معرفة □ الخالق المدبر، (وَكَذَلِكَ نُزِّيَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ \* فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُنْزِلَنَّ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ \* فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ مَسَّ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ \* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام / 75-79).

ونهج القرآن الكريم في الاستدلال والاهتداء هو دائماً بتبصير العقل وإيقاظ الفكر للنظر في آيات □ في ملكوته للوصول إلى معرفة □ معرفة اليقين هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسميون ينبت لكم الزرع والزيتون والنخيل والأعناب. ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون والقرآن حافل بدعوة الناس إلى التفكير والتعقل والتدبر لهذا الكون.

وكثيراً ما نعى على الذين لا يؤمنون أنهم لا يستخدمون حواسهم في النظر أو السمع وما عندهم من المواهب (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (البقرة / 171)، والواقع أن نهج القرآن حاسم في أنه يريد الإنسان أن يكون واعياً وملاحظاً ناظراً متديراً متعللاً لما حوله، وينعى على الذين يعطلون هذه المواهب والحواس المقومة لإنسانيتهم مثل أولئك الذين يفلدون ولا يحركون عقولهم أو يبغون الحق والهدى (قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَكَلَّوْنَا أَوْلَادًا أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (المائدة / 104).

إن هذه الحياة الدنيا ليست حياة عديمة الغرض أو خالية المعنى وإن هذا الكون الذي نشاهده ونتحرك فيه يستحق منا أن نتدبره وننشده فيه الخير والحق والجمال، وقد رزقنا □ السمع والبصر والفؤاد لننظر ونعقل ونفكر وكلما دق نظرنا وضح بحثنا كلما ارتفعت معارفنا وسمت نفوسنا وزدنا إيماناً ويقيناً وحباً للخير والحق والجمال.

وبعد فإننا إذا تدبرنا القرآن الكريم وآيات الذكر الحكيم وتعرفنا أهداف آياته المحكمات نجدها جملة وتفصيلاً تهدف إلى دفع العقل البشري إلى النظر في الكائنات والتدبر في ملكوت السماء والأرض وما خلق □ من شيء، وإن من لم يكن له هذه القوة المدركة لا يبلغ درجة اليقين في دينه ولا تتمحكن نفسه من معرفة □ حق معرفته وإذا تمت المعرفة للإنسان وآمن اكتملت له مقومات حياته العقلية والروحية وشرح □ قلبه بالسعة وغمره بالنور والسكينة وألهمه المعرفة من عنده (الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) (الفتح / 4).

المصدر: كتاب القرآن/ نظرة عصرية جديدة